الباب الثاني

مدارس الزهد واتجاهاتها

الفصل الأول

مدرسة الحجاز

الحركة العلمية ورجالها

تعتبر مدرسة الحجاز هي: المدرسة الأم التي شعت على كل المدارس من نور العلم والحكمة؛ حيث بُعث فيها رسول الله ﷺ بدين يقدم للعقل مادة تفكيره، ويرسم له المنهج الصحيح بعد ما يفك أسره من الجمود، ويفتح قواه على النظر في الكون، وفيما وراءه، وفي داخل النفس الإنسانية، ويوضح بجانب هذا للمؤمنين مدارج السلوك؛ كي يصلوا إلى مراقي الفَلاح، ويخطوا إلى رحاب القرب الإلهي.

وبحكم النشأة الأولى للإسلام على أرض مكة، وما نشأ في الفترة المكية من مناقشات، وما أثير من مسائل؛ فمن الطبيعي أن توجد في هذه البيئة المكية حركة علمية جديدة، وينفتح العقل على أمور كان عنها في غفلة، وقد ظلت تلك المسائل محور الحديث داخل مكة وخارجها، وفي سائر أرجاء الجزيرة العربية التي تناقلت أنباء البعثة وما يجري حولها.

وسرعان ما انتشرت في خارج تلك البقعة التي جاء الإسلام بلغتها، على أن ما انفتح لم يكن ليغلق مهما بلغ من قوة الباطل ومحاولة دحض الحق؛ لأن الله كتب على نفسه أن يظهر النور وأن يعلي كلمته.

وبعد أن تحول الرسول من مكة إلى المدينة نزحت الحركة العلمية برجالها إلى بلد الهجرة مخلفة وراءها آثارًا لا تمحى، ومستقبلة أمامها كثيرًا من أحكام التشريع التي أضيفت إلى ما نزل سابقًا في العقائد.

وعلى ساحة هذه الأرض الجديدة اكتمل الوحي والدين وتم الإسلام،

وحلت الوفود، وعرضت المسائل وقدمت الحلول والإجابات، وتعلم الصحابة القراءة والفهم، والرواية والفتوى، والمحاججة؛ كما تدربوا على أنواع السلوك المستقيم، ومرنوا أنفسهم عليه، وساسوها بالعلم الإسلامي، والتأسي برسول الله ﷺ.

ولما هاجر الرسول من مكة واجتمع هو والمسلمون في المدينة، وحرم على المسلمين في حياته العودة إلى مكة إلا من أذن له بعد الفتح لمهمة خاصة أدى ذلك إلى تدعيم مركز المدينة الثقافي والديني والسياسي، وصارت مقصد طلاب العلم من كل صُقعٍ فتحه المسلمون؛ خاصة وأنه بعد انتقال رسول الله إلى الرفيق الأعلى واتساع الفتوحات ظلت المدينة هي البلدة التي تغص بأكثرية الصحابة، وقد حافظت على مركزها هذا طوال عصر الخلفاء الراشدين، والحكم الأموي، وصدر من الخلافة العباسية؛ حتى انتزعت بغداد تلك الريادة.

وذكر لنا ابن سعد الواقدي نفرًا من الذين عُلموا بالمدينة نخص منهم بالذكر عبد الله بن عباس قبل استقراره في مكة، وابن عمر، وأبا سعيد الخدري، وعبد الله بن بجينة، وأبا هريرة، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وجابر بن عبد الله، ورافع بن خديج، وسلمة بن الأكوع، وأبا واقد الليثي مع أشباه لهم من أصحاب رسول الله ﷺ[1] أمثال الخلفاء الأربعة ومعاذ، وزيد، وسلمان.

وإن كان بعض هؤلاء قد نزح إلى غيرها وعلّم بها، كما فعل عبد الله بن عمرو الذي رحل إلى مصر، وأقام بالجامع الذي سمي باسم والده، رحل ابن عمر إلى مكة وجاور بها.

ولم تحظ مدرسة من المدارس بالفقهاء السبعة ذوي المكانة العلمية المرموقة

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد عند الحديث عن الصحابة في المدينة.

مثلما حظيت المدينة وهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وخارجة بن زيد بن ثابت، عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وسليمان بن يسار[1].

وبجانب هؤلاء وهؤلاء كان للموالي دور كبير في العلم، وساعد على قيامهم به أنهم كانوا لا يوزعون إلا في المدينة، ومعظمهم من الطبقات الراقية المتعلمة في بلادهم غالبًا سواء في الفرس أم الروم، وكانوا يكتبون والعرب لا تكتب، وسهل تلقيهم من الصحابة بحكم أنهم موال لهم، وشغف من تحرر منهم بطلبه في مظانه حسب الميل الذي طبعوا عليه قبل الفتح[2].

ومع ما للمدينة من مكانة علمية، ووفرة في الأساتذة والرواد الآمّين إليها من كل فج عميق؛ فإن مكة لم تُهمل بعد الفتح بل ترك رسول الله بها معاذ بن جبل يعلم، وباعتبارها حرمًا آمنًا فقد جذبت إليها عددًا من الصحابة الذين آثروا الاعتزال، وكانت -بتلك الميزة الدائمة- المكان الهادئ الذي يفر المسلمون إليه؛ ولذا رحل عمرو بن العاص وولداه عبد الله ومحمد بعد عزله في خلافة عثمان (٢٥هـ)[3]، واستقطبت عبد الله بن عباس بعد خلافه مع علي بن أبي طالب وعزله عن ولاية البصرة قبيل مقتل الإمام علي، وقد مكث بها إلى ما بعد سنة (٧٠هـ)، وهو العام الذي مات فيه ابن السائب تلميذ أُبي بن كعب، وحضر جنازته ابن عباس مما يقطع بأنه جاور بها قُرابة ثلاثين عامًا.

ونظرًا لطول تلك المدة ولسعة علم ابن عباس، وكونه حَبرًا، وربانيًّا لهذه الأمة، وواحدًا من الراسخين في العلم، وأفقه من مات وعاش كما قال معاوية؛

---

(١) حلية الأولياء ج٢: ١٦١

(٢) مقدمة ابن خلدون: ٤٨٠

(٣) الأتاكي: النجوم الزاهرة: ج١: ٨.

ولبروزه في كل فن من فنون العلم؛ لذا أمَّه القاصدون من طلبة العلم في كل فروعه من أنساب وشعر، وفقه، وقرآن، وحديث، فوجدوا عنده بغيتهم[1]، كما انضم إليهم عبد اللـــه بن الزبير عام (٦٠هـــ) بعدما رفض بيعة يزيد بن معاوية أمام الوليد بن عتبة بن أبي سفيان والي المدينة[2].

وقد نبغ فيها من التابعين مجاهد بن حنين، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس بن كيسان، عبد اللـــه بن عبيد الله، وعمرو بن دينار.

وأبرز العلوم التي انتشرت في هذه المدرسة بشطريها هي القرآن وعلومه وتفسيره، ومن أشهر المشتغلين بهذا العلم عبد اللـــه بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وسعد بن عبيد الشهير بسعد القارئ[3]، كما حوت المدرسة جميع رواة الحديث المشهورين من الصحابة والمعروفين لدى أرباب هذا العلم، وغلب عليهم بصفة خاصة التفقه في الدين فعرفوا به وصدر الناس عن فتاويهم فيما كانوا يمتحنون[4].

وكان عُمر وعثمان وعلي يفتون في عهد رسول الله، وتخصص معاذ في الحلال والحرام والفتوى وزيد في القضاء والفرائض، وظل مترئسًا في هذا حتى ولي معاوية، وبصفة عامة فإن العلوم الإسلامية الأصيلة قد تأسست في هذه المدرسة وحصل الصحابة وهم من العرب الخلص المسائل العلمية، وتفهموها على وجه علمي ومنهجي، الأمر الذي يبعث فينا الدهشة خاصة إذا ما وضعنا في

---

(١) انظـــر ابن سعد الطبقات الكبرى ج٢: ١٢٣، والشعراني الطبقات: ج١: ٢٢ ومعرفة القراء الكبار ج١: ٤١.

(٢) ابن عبد ربه العقد الفريد ج٢: ١٥١.

(٣) التاج ٣: ٢٩٣ ومسلم ج٢: ٣٢٩.

(٤) أبو نعيم: الحلية: ج٢: ١٦١.

اعتبارنا ما كان عليه المسلمون قبل البعثة من بداوة وأمية، ومع ما شغلوا به بعدها في الحروب وشئون الدعوة والأمة.

ويرجع الفضل في بعث هذه الروح العلمية إلى الإسلام الذي دعا في صلب كتابه وبين أقوال نبيه إلى العلم كما سنفصلـــه فيما بعد، وإلى الطبيعة العربية وما تحدثه من تأثير في سكانها، وهو ما صرح به المسعودي إذ يقول في وصف الحجاز: هواؤه حرور وليلـــه سهور، ينحف الأجسام ويخفف الأدمغة، ويشجع القلوب، ويبسط الهمم[1] وهذا النص يخدمنا في مجالين:

الأول: في طلب العلم وتحصيله.

والثاني: فيما نحن بصدده من الزهد والتقشف، والصبر على تحمل الصوم والجوع والمشقة في العبادة مما يمكن أن نقول معه: إن المسلم العربي أولاً قد اكتسب من الطبيعة التي يعيش عليها صفات نفسية أعانته على التحصيل العلمي، ودفعت همته إلى الزهد النابع من المبادئ الإسلامية ارتباطًا لا ينفصل إلا عند ضعاف النفوس ممن تستهويهم الشهرة، ويقعون تحت سيطرة جموح الغرائز، والفضيلتان معًا يتحققان أولاً في المسلم العربي بصفة خاصة لنحافة جسمه، وخفة رأسه، وقوة قلبه وهمته، كما يتحققان في المسلم عامة لدعوة الإسلام إليهما، ولعوامل أخرى تخص كل قطر حسبما نبين في المدارس الأخرى.

وإذا كانت مدرسة الحجاز على هذا النحو قد حباها اللـــه برجال وعقول يقف التاريخ مبهورًا أمام استعدادهم لتحصيل العلم، واستيعابهم لـــه في أقصر مدة عرفها تاريخ العلم، فلنا أن نتساءل: لماذا لم تنل تلك المدرسة اهتمامًا كبيرًا من الدارسين؟

---

(١) ابن سعد الطبقات الكبرى ج٢: ٩٨، ٩٩، ١٠٧، ١٠٨، ١١٦، ١١٧.

والإجابة على هذا التساؤل من السهولة بمكان؛ إذ يرجع السر في ذلك إلى سير الباحثين الإسلاميين وراء المستشرقين الذين اهتموا بمدرسة العراق، وأهملوا تلك المدرسة عن عمد؛ ليظهروا عجز العرب عن طلب العلم، وليبينوا أنهم عالة على أبناء البلاد المفتوحة التي سبقت العرب بالتمدن من أبناء الفرس والروم.

ودحضًا لتلك الخرافة اضطررت وأنا في صدر الحديث عن الزهد أن أقدم لهذه المدرسة بتلك المقدمة العلمية، ولما للزهد بالعلم من صلة، ولأن تلك المدرسة هي صاحبة الفضل على بقية المدارس إذ عليها وقع عبء تعليم الجميع العلوم الإسلامية المختلفة.

المنهج والطريقة

التزم رجال هذه المدرسة منهجًا قويمًا لا يتغير عما كان عليه الرسول ﷺ، وقد تناقلـــه التابعون عن الصحابة، ومن التابعين إلى تابعيهم، ويتلخص هذا المنهج إجمالاً في التمسك بظاهر النصوص مع شيء من التأويل، واعتناق الكتاب والسنة والاحتكام إليهما عند وجود نص وإلا فالاجتهاد، كما استخدموا الجدل أحيانًا.

أما على وجه التفصيل فإنهم سلكوا في التفسير طريق الشرح بما سمعوه من رسول اللـــه صلوات اللـــه عليه، فإن لم يسمعوا شيئًا لجئوا إلى الرأي والاجتهاد[1]، وأضاف ابن عباس التأويل الذي هو منحة اللـــه للراسخين في العلم، ويبدو أن قراءتهم هي التي نقلها عاصم فيما بعد كما نفهم من سياق الروايات التي ذكرها الذهبي في كتابه معرفة الكبار.

ولم يتجاوزوا في الفقه المنهج الذي أعلنه معاذ بن جبل أمام النبي ﷺ حين

(١) مقدمة تفسير ابن كثير ج١: ٤.

أرسلـــه واليًا على اليمن وقال له:«بم **تحكم**؟ قال: بكتاب اللـــه قال: **فإن لم تجد**؟ قال: بسنة رسول اللـــه قال: **فإن لم تجد** قال: أجتهد رأيي، فضرب رسول اللـــه ﷺ صدره وقال: **الحمد للـــه الذي وفق رسول رسول اللـــه لما يرضي رسول الله**».

ووصفت فتاوى زيد بن ثابت بأنها كانت واقعية لا افتراضية؛ ولذا عمل بها ولا خلاف[1]، وقد اتسمت فتاويهم بالجمع والشمول لا التفريع والتشقيق، وإن كنا نؤكد على أنه لم تخل هذه المدرسة من طريقة التحليل والتقسيم، واستخدام الجدل[2] خاصة عند الإمام علي كرم اللـــه وجهه.

وتبنى الزهاد هذا المنهج في كل فرع من فروع العلم، وأضافوا إليه عمل الصحابة والمأثور عنهم باعتبارهم أدرى الناس فهمًا للوحي، وأكثر الناس معاشرة للرسول، وإصرارًا على المنهج يقول عروة بن الزبير: لا نتخذ كتابًا مع كتاب الله[3] أي لا نضيف معه إلا السنة الشارحة؛ ولذا تعلموها وأتقنوها؛ حتى روى عبد الرحمن بن الزناد عن أبيه: ما رأيت أحدًا أعلم بالسنة من القاسم بن محمد وكان الرجل لا يعد رجلاً؛ حتى يعرف السنة[4].

وجهد محمد بن سيرين (١١٠هـــ)، ومحمد بن المنكدر (١٣٠هـــ) نفسيهما كي تستقيم على آثار السلف[5]، وحفاظًا على عدم المساس بصحة المنهج طالب كل من علي زين العابدين، وأبي جعفر محمد الباقر الشيعة بأن يحبوا آل البيت

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٢: ١٠٦-١٠٧

(٢) انظر ما يدل على هذا من نصوص أثناء تصفحك لهذا البحث.

(٣) الحلية ج٢: ١٧٦.

(٤) نفسه ج٢: ١٨٤.

(٥) الشعراني: الطبقات الكبرى ج١: ٢٦، ٢٧، ٣٢، ٣٣.

بحب الإسلام، وأن يكفوا عن ذم الصحابة وإلا استبيحت دماؤهم[1].

وكان سالم بن عبد الله بن عمر (١٠٦هـ) والقاسم بن محمد بن أبي بكر (١٠٨هـ) يلعنان القدرية ويقول الأخير: كفوا عما كف الله عنه[2]، وجاء في العقد الفريد لابن عبد ربه أن طاوس رفض أن يقابل قتادة لقوله بالقدر[3].

وبهذا يتضح أن منهج هذه المدرسة قد قام على الظاهر من الكتاب والسنة، ودخل التأويل والاجتهاد والجدل بين بنوده على أيدي الصحابة واتسم بالواقعية والتحليل والتقسيم، وإليه يشير الحديث: «**تركتم فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي**»، وقول معاذ السابق وما جاء في القرآن من حث على الجدل الحسن (١٢٥ النحل، ٤٦العنكبوت).

الزهد وخصائصه

تحدثنا عن الأسباب الاجتماعية والسياسية والدينية التي دفعت المسلمين إلى الزهد، وبينا كيف ترابط العلم والزهد؟، وكيف أن الطبيعة العربية هيأت المسلم؛ لتلقي العلم، وأعانته على المضي في نزعة الزهد. والتي بها وبظروف تخص نشوء الدعوة على سطح هذه الجزيرة كانت مدرسة الحجاز منبعًا لكل المدارس.

إن في العلم وإن في الزهد خصوصًا إذا ما تبين لنا أن زهاد هذه المدرسة قد طرقوا خصائص الزهد الأصلية واتجاهاته المتعددة والتي نفصلها على الوجه الآتي:

---

(١) نفسه

(٢) نفسه ج١: ٢٧-٢٨.

(٣) العقد الفريد ج١: ٢٠٥.

أولا: التشدد في الزهد والعبادة

يعتبر هذا الاتجاه طابعًا عامًا لدى جميع الزهاد ولدى رجال الحركة الروحية كلها وإن تفاوت من فرد لفرد، أو من جماعة لجماعة، ومن مدرسة إلى مدرسة، ويسري هذا التفاوت على التشدد في التقلل والعبادة، وينبع أساسًا من رقة الحاسة الدينية ورهافتها؛ فكلما كانت على درجة عالية من الحدة كانت آثار الاجتهاد، والفزع إلى اللـــه في العبادة، والبعد عن كل ما يعوق السير على نفس تلك الدرجة قوة ومضاء، وتتناسب طرديًا وعكسيًا معها.

ولا يخفى أن العوامل السابقة ومقدار استجابة النفس لها هي التي تتحكم في رقة أو بلادة تلك الحاسة، والزهاد بما وصلوا إليه من تقشف وجهاد للنفس وللعدو ولكل ظالم أو حاكم يعتبرون على قمة المتدينين شعورًا وحاسة وتدينًا.

وهذا هو السر في أن أبا بكر بكى وأبكى من حوله، ثم بكى حتى لم يقدر أحد على مساءلته حين قُدم لـــه إناء فيه ماء وعسل، فلما أفاق قالوا لـــه ما هاجك على هذا البكاء، قال: «كنت مع النبي ﷺ وجعل يدفع شيئًا ويقول: **إليك عني إليك عني** ولم أر معه أحدًا، فقلت لـــه يا رسول الله: أراك تدفع عنك شيئًا ولا أرى معك أحدًا؟ قال: **هذه الدنيا تمثلت لي بما فيها فقلت لها إليك عني فتنحت وقالت أما واللـــه لئن انفلت مني لا ينفلت مني من بعدك فخشيت أن تكون قد لحقتني فذاك الذي أبكاني..**»[1]

وهذا النحيب من الخليفة يعني شدة الحاسة الدينية التي جرفت أمامها العوائق، وأزالت الحجب؛ حتى ولو كان سلطان الخلافة وما يتبعه من زهو وغرور، أو سلطان الإمارة الذي أمحى أمام تشدد سلمان الفارسي فراح يوزع عطاءه مع كثرته ويأكل من عمل يده وليس لـــه بيت يسكن، وكان يتقوت من

---

(١) أبو نعيم في الحلية ج١: ٣٠-٣١.

عمل الخوص، وبلغ من رثاثة حالـــه أن كان يجهلـــه الناس وهو أمير فيسخرونه في حمل أمتعتهم يحسبونه حمَّالاً، وعندما يتبين الأمر يرفض وضع الحمل حتى يوصله[1].

وإن دل هذا فإنما يحدو بنا إلى حقيقة دقيقة مؤداها أن هذه النفوس بلغت من القوة والغنى حدًّا جعلها تسمو فوق مظاهر الدنيا وتستغني عنها بما وُطنت عليه من طلب القرب والنجاة، وخوف الزلل والبعد، وبجانب هذا اللون من التشدد في الزهد والتقلل يوجد لون آخر من نفس الدرجة ذو طابع سياسي تبناه سعيد بن المسيب (٩٢-٩٣-٩٤هـــ) إذ رفض بضعة وثلاثين ألفًا من بيت المال قائلاً: لا حاجة لي فيها حتى يحكم اللـــه بيني وبين بني مروان[2]، وما تركها إلا ليصون بها جسمه ودينه[3]، وخوفًا من أن يصيبه قول رسول الله: «**كل جسم نبت من سُحت فالنار أولى به، والذي يأكل لقمة من حرام لا يقبل اللـــه دعاءه أربعين يومًا**».

ودعا ابن المسيب إخوانه من الزهاد؛ حتى نهاهم عن أن يملوا أعينهم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار من قلوبكم؛ لكي لا تحبط أعمالكم الصالحة[4]؛ ولذا كان عبد اللـــه بن عبيد (١١٧هـــ) وعمرو بن دينار (١٢٦هـــ) يؤثرون البعد عن الولاة، ويتورع طاوس بن كيسان عن سقي الدابة من بئر حفرها السلطان.

وإن مَثَّلَ هؤلاء تيار التشدد فقد كان محمد بن المنكدر يمثل الجناح المعتدل ويميل إلى الملك مع الإطعام والبذل، كما سلك مسلكه صفوان بن سليم، وعامر

---

(١) الشعراني: الطبقات ج١: ٢٠-٢١.
(٢) وفيات الأعيان ج٢، وطبقات ابن سعد ج٥: ٩٥-١٠٦.
(٣) نفسه.
(٤) الشعراني: الطبقات ج١: ٢٦.

بن عبد اللـــه بن الزبير[1]، فالثلاثة ومن على شاكلتهم ملكوا وزهدوا وجادوا، مما يقطع بأن التقلل في تلك المدرسة اتسم بالتشدد لدى البعض، ولكنه بدا هادئًا معتدلاً لدى آخرين، والذين تشددوا لم يعجزوا وإنما وجدت لديهم أسباب الملك؛ فتخلوا عنها، وحكمنا على النـــزعتين معًا فيما سبق أن ذكرناه وهو أن النبي ﷺ عامل كلاً حسب الاستعداد النفسي وما يصلحه، ولكل دليلـــه الذي يسانده كما مر.

وإذا تفاوت التشدد في التقلل وتنوع؛ فإن التشدد في الطاعة والعبادة كان اتجاهًا شاملاً لكل الزهاد، نراه عند علي زين العابدين (٩٩هـــ) الذي داوم على صلاة ألف ركعة ما تركها في حضر ولا سفر، واتخذ صفوان بن سليم (١٣٢ هـــ) سطح داره مكانًا لعبادته يقوم فيه حتى تتورم قدماه، وسمي أبو بكر عبد الرحمن راهب قريش؛ لكثرة تعبده، كما أكثر كل من مجاهد وعطاء وطاوس من عبادتهم، وعلل أبو حازم المدني هذا التوجه أو التشدد بأنه محاولة جيدة للانتصار على الفتن في داخل الإنسان وخارجه[2]، وإلى هذا نحا عبد اللـــه بن الزبير.

ومسلك الزهاد من الصحابة والتابعين وتابعيهم في التشدد يراعى فيه الجوانب الآتية:

(أ) إننا نرى أن اللـــه سبحانه يقول ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[البقرة: ١٨٥] وذلك عقب آيات الصوم، ويقول في آيات النكاح ومخالطة النساء: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[النساء: ٢٨]، وأن النبي ﷺ نهى عن المشادة في الدين وأمر بالإيغال برفق.

---

(١) أبو نعيم الحلية ج٣: ١٤٨-١٥٩، ١٦٦.

(٢) انظـــر ابـــن الأثير الكامل ج٤: ١٧٥-١٧٦، والشعراني ج١: ٢٧، ٣٤ ،وابن سعد الطبقات ج٥: ٣٥٤، ٣٩٣ والحلية ج٣ ١٨٧ ج٣: ٢٣١.

وكذلك نهى النبي عن التشدد في حوادث من شأنها أن تدمر بشرية الإنسان وقواه، أو تقطع كل صلة بينه وبين الدنيا مثلما وجد زوجته زينب تعلق حبلاً بالمسجد؛ لتستند إليه عند غلبة نومها فقطع الحبل ونهى عن ذلك.

وكما رفض قرار النفر الثلاثة الذين قال أحدهم: أصوم ولا أفطر، وقال الثاني: أقوم ولا أنام، وقال الثالث: وأنا أعتزل النساء، وبين لهم أنه يصوم ويفطر ويقوم وينام، وينكح النساء: «**فمن رغب عن سنتي فليس مني**»، ولما فكر أبو بكر، وعليّ وابن مسعود، وابن عمر، وأبو ذر وسالم، والمقداد، وسلمان، ومعقل، في أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ويتجنبوا النوم على الفراش، ويترهبوا، ويجبوا المذاكير ذكرهم رسول الله أنه جاء بالحنيفية السمحاء قائلاً: «**والذي نفسي بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة**»[1].

ونستخلص من هذه النصوص أن النبي ﷺ خشي أن يحذو بقية الصحابة حذو المتشددين ممن عزم على الاعتزال كلية، وبذا يتعطل ركب العمران، ولواء الجهاد، والخلافة المنوطة بالإنسان عامة، والمهمة الملقاة على عاتق الصحابة من نشر الدين، والدفاع عنه بصفة خاصة.

ومما حدا بالنبي إلى هذا النهي بشدة هو ما لحظه من ميل كثير من الصحابة إلى هذا اللون من السلوك المتشدد، وأيضًا فإن جب المذاكير، وتجنب النوم وغيرها من الأمور التي اعتزمها بعض الصحابة رآها النبي لا تُقَوِّمُ النفس أو تهذب سلوكها بقدر ما تكبتها، وما يخشى على النفس معها الفتور والقلق فضلاً عن أنها لا تطيقها كل البشر، وتخرج عن حد الاعتدال الذي هو طابع الشريعة الإسلامية، وأن المبالغة في التقلل والعبادة أمر يعرض حياة الزاهد للخطر أو يعزله تمامًا عن

(١) تفسير القرطبي: ٢٢٥٧-٢٢٥٨.

المشاركة في الحياة.

(ب) أما الجانب الثاني الذي يجب النظر إليه فهو ضرورة العلم بأن الإسلام نظر إلى الإنسان نظرة المعالج المترفق بالنفس البشرية، وجاء بالتكليف على قدر الجهد الذي يمكّن الإنسان من تحقيق آمالـــه الأخروية مع عدم إهمال النصيب الدنيوي، ومع مراعاة حقوق البدن، ومقدار الإرادة والاستطاعة اللتين هما نسبيتان لدى الأفراد،

ولهذه الغايات، وتلكم الاعتبارات بين الرسول ﷺ لابن عمرو أنه يجب عليه مراعاة كافة الحقوق المنوطة به فقال: «**إن لزوجك عليك حقًا ولزورك عليك حقًا ولجسدك عليك حقًا**»، وفي رواية «**إن لبدنك عليك حقًا ولزوجك عليك حقًا ولدينك عليك حقًا فأعط لكل ذي حق حقه**»[1].

ومن ناحية ثانية جاءت السنة تحث على العبادة بقدر الطاقة مع المداومة، وترجع الفضل إلى الدوام والرضا عن الطاعة وعدم السآمة فيقول الرسول: «**يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن اللـــه لا يمل حتى تملوا، إن أحب الأعمال إلى اللـــه ما دُووم عليه وإن قل**»، ولما ذكرت السيدة عائشة أمامه خبر الحولاء بنت تويت وأنها لا تنام الليل قال: خذوا من العمل ما تطيقونه فواللـــه لا يسأم اللـــه حتى تسأموا[2].

وأيضًا على الإنسان أن يتخير لطاعته ساعة نشاطه، وأن يهيئ نفسه بالقوة واليقظة للطاعة حتى يستفيد منها، ولا يخشى على نفسه غلبة أو شطحًا؛ لذا يقول النبي: «**إذا نعس أحدكم في الصلاة فيرقد حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم**

---

(١) صحيح مسلم ج٢: ٤٣٧-٤٤١، ج٣ ٢١٦.

(٢) نفسه.

إذا صلى وهو ناعس لعلـــه يذهب يستغفر فيسب نفسه ويقول: إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضجع»[1]، وفيه النهي عن استعمال الحبل أو الملح أو الماء لإذهاب النوم أو التقوي بالماء على الصوم.

وكذلك: فإن الإسلام نظر إلى فترات العمر من قوة وضعف، فأراد أن يخفف الإنسان مع الدوام حتى لا يفتر في هرمه وإلا شق عليه، ومن هنا قال النبي لعبد اللـــه بن عمرو حين علم أنه يقوم الليل كلـــه ويصوم النهار: «**فإنك لا تستطيع ذلك**»[2]، وأخبره من باب النبوة قائلا: لا تدري لعلك يطول بك عمرك[3]، ولقد صدق رسول اللـــه ﷺ فلما كبر عبد اللـــه بن عمرو قال: وددت أني كنت قبلت رخصة نبي اللـــه ﷺ[4]، إذًا لكان أحب إليَّ من أهلي ومالي[5].

وتحدد هذه النصوص أهداف التشريع نظراته في مجال الاجتهاد في الطاعة بما يضمن استمرار الاستطاعة وديمومة العمل بلا مشقة ولا ضرر لتكون النفس أنشط والقلب منشرحًا فتتم العبادة[6] بشرائطها من دوام المراقبة والنية والإخلاص والحضور وعدم الفتور بسبب الجهد والتعمق أو التقعر كما هو رأي الإمام النووي.

(جـــ) وبالنظر في هذين الجانبين ندرك أن الدين لم يقطع بالنهي عن كثرة العبادة

---

(١) نفسه.
(٢) نفسه.
(٣) صحيح مسلم ج٣: ٢١٧-٢١٨-٢٢٣
(٤) نفسه.
(٥) نفسه.
(٦) مسلم بشرح النووي ج٢: ٤٣٩-٤٤٠.

مع قدرة المداومة عليها بَدَنيًّا، ولدى أرباب النفوس والإرادة القوية الذين يطيقون الكثرة مع ما فيها من مشقة بدون انقطاع أو فتور، وإن ضعف البدن حينًا؛ لكن النفس تظل في قمة نشاطها وحضورها؛ لأن المفهوم من قولـه ﷺ:«**عليكم من الأعمال ما تطيقون**» هو أنه ربط العمل بالطاقة وتركها مفتوحة على قدر جهد كل عابد بلا تحديد معين.

فما دامت الطاقة موجودة والنفس حاضرة فلا بأس من الكثرة، وأيضًا طرد النوم المسبب للقعود عن الصلاة مشروط بفقدان الحس والغلبة على الإدراك، ومعناه أن النوم وحده غير كاف في النهي إلا مع عدم التمييز.

وبالإضافة إلى هذا فإن الرسول جعل القليل مع الدوام أحب بلا إلزام بالقلة، وقد فضلها على الكثرة متقطعة لا على الكثرة ثابتة تطيقها إرادة قوية، ومن هنا فإن الكثرة مع الدوام بشرط الحضور والنشاط أحب وأحب عند الله، وإذا صارت تلك الحالة هي عادة المجتهد في العبادة بلا خلل بدني أو عقلي يشوش عليه أذن لـه بها من الشرع كما قال رسول اللـه «**فليُصَلِّ أحدكم نشاطه**»؛ لأن الاجتهاد والكثرة صارا لـه نشاطًا.

ولهذا الفهم جوز الإمام مالك وجماعة من السلف إحياء الليل كلـه بشرط عدم تعطيل الحقوق من جراء السهر.

كما جوز جماهير العلماء ومنهم الإمام الشافعي سرد الصوم، وذهب البعض إلى استحبابه بشرط ألا يلحقه ضرر ولا يفوت عليه حقًّا[1] واستدلوا بسؤال حمزة بن عمرو لرسول اللـه حين قال له: يا رسول اللـه إني أسرد الصوم أفأصوم

(١) نفسه ج٣: ٢١٦-٢١٧-١٧٩.

في السفر فقال النبي ﷺ: «**إن شئت فصم**»[1] وحملوا نهيه لعبد الله بن عمرو على الخصوصية لمن لا يطيقون السرد، كما استدلوا بأن حمزة وأبا طلحة وعائشة كانوا يسردون[2].

ثانيا: الخصائص النفسية

وضح مما سبق أن أساس الزهد والتعبد قد وضع في مدرسة الحجاز، ولكن هذا الأساس لا يستقيم ولا تستقر عليه النفس؛ حتى تهذب وتروض وتدرب على الفضائل تدريبًا يخلصها من الشوائب والكدر، ويجعلها قادرة على اجتياز العقبات أيًّا كانت؛ ونظرًا لأن القرآن والسنة -بما يجل عن الحصر ولا يخفى على الباحثين- قد ساقا كثيرًا من الفضائل كالخوف، والرجاء، والشكر، والتواضع، والصبر، والتقوى، والورع، والمجاهدة، والمحاسبة؛ فإننا نجد رجال هذه المدرسة قد تحدثوا في المقامات، والمهلكات.

فتكلم أبو بكر في الورع، وتقيأ لقمة عرس قائلاً: والله لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها[3]، وتحدث عن الاستحياء وطالب الصحابة به، وأخبرهم أنه يظل حين يذهب؛ لقضاء الحاجة متقنعًا بثوبه استحياء من ربه، وحث سلمان على التوكل، وأفاض أُبي بن كعب في الصبر والشكر والصدق.

وهكذا كانت الفضائل النفسية موضع اهتمام رواد هذه المدرسة من صحابة وغيرهم، والذي يهمنا الآن أن نتلمس طبيعة الصبغة النفسية لهذا الاهتمام فنجد:

(أ) أنها أخذت طريقة التحليل والتوصيف، واعتنت بالتعمق في الصفات النفسية،

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) الحلية ج١: ٣٠-٣١.

وما يمكن أن يتصل بها من قريب أو من بعيد؛ ليكون السالك على بينة من أسرار النفس، وعلاقتها الداخلية والخارجية، وارتباط ظواهرها بعضها ببعض، وأجلى ما يظهر هذا في أقوال الإمام علي عندما نسمعه يقول: بني الإسلام على أربعة أركان: على الصبر واليقين والجهاد والعدل، وإذا أُخذ في شرحها جعلها شاملة لكل ما يفعلـــه المسلم من معروف، وما يجتنبه من منكر، وما يشتاق إليه من قربٍ وجنة، وما يجب اتباعه من سنة وصدق في المواطن.

كما لا يفوته الجانب العلمي النظري بقسميه: الكسبي عن طريق التعلم، والقلبي عن طريق البصيرة والحكمة، وما يكون فيه من نص أو تأويل، ويكسو كل هذا ثوب نفسي صرف، وكأنه ينظر إلى بناء الإسلام ذي الأركان الأربعة من خلال النفس التي سيوكل إليها عبء هذا التشديد النظري والعملي، الظاهري والباطني[1].

ويزيد الأمر تفصيلاً حين يقسم كل ركن من الأركان إلى شعب أربع: فيجعل الصبر شاملاً للشوق والشفقة والزهادة والترقب، واليقين جامعًا لتبصرة الفطنة، وتأويل الحكمة، ومعرفة العبرة، واتباع السنة.

كما يشتمل الجهاد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدق في المواطن وشنآن الفاسقين، وضم العدل الغوص في الفهم وزهرة العلم وشرائع الحكم وروضة الحلم، مع تفصيل لكل ما ذكر، وترتيب للمسائل على غاية الدقة المنطقية قبل أن يعرفوا التفريع عن طريق الفلسفة والمنطق، مما يذهب بنا إلى

---

(١) انظـــر الحلـــية ج١: ٣١-٣٤، ٣٥، ٧٧، ٢٠٥، ٢٥٥، ج٢: ٣٥-٣٦، ١٤٧، ٢١٣،٢٥٥ ج٣: ٢٢١، ٢٣٣، ١٧٩.

التسليم بجدية البحث في هذه المدرسة وأصالته[1].

(ب) بدا من هذه النظرة أنها لم تكن عملية فحسب وإنما تنبه أساتذتها إلى الثمرات النظرية التي تُجنى من وراء التطبيق العملي من ناحية والتي ترتبط ببعضها ارتباطًا قويًّا من ناحية أخرى، وباسترجاع ما قاله الخليفة الرابع في اليقين والعدل نتحقق من صدق ما قلناه ولاحظناه، وأيضًا صارت لفظة الفقه عنده تعني الدراية لا الفتوى في المسائل وبالتالي فالتفقه على هذا النحو يجمع بين الخوف والرجاء حسبما أكد على هذا هو وأبو بكر رضي الله عنهما.

(جـ) محاولة التنبيه لما ينبغي أن يكون عليه الإنسان الكامل بإبراز الجوانب النفسية التي يجب أن يتصف بها، والتحذير من الآفات التي تنحدر به وبكيانه كله، ورسم الطريق الخير الذي يلتزمه السالك فيما بينه وبين الآخرين.

وأجمع نص استوعب هذا كله ما جاء على لسان الحسن بن علي حين سأله والده عن أشياء من المروءة مثل السداد، والشرف، والرأفة، والسماح، والإخاء، والغنيمة، والحلم[2]، والغنى، والفقر، والمتعة، والجرأة، والكلفة، والمجد، والسناء، والحزم، والعقل، كما قدم إليه استفسارات عن اللوم، والشح، والجبن، والذل، والعي، والخرق، والسفه، والغفلة، والحمق.

وقد استوعبت الأسئلة ما يمكن أن تتصوره العقول في كل زمن من الفضائل والآفات، الأمر الذي يجعلها ذات أهمية في ذاتها؛ نظرًا لسعتها وشمولها، وبالنظر إلى مغزاها التربوي؛ حيث يريد الأستاذ أن يطمئن على درجة استيعاب وحكمة

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

التلميذ.

ولا نغالي إذا قلنا: إن الإجابة على هذه الأسئلة اتسعت لتشمل كل ما يمت إلى الإنسان بصلة في داخلـــه وخارجه، وقد حملت مضامين نفسية وأخلاقية وعرفانية، وطوفت في عمق الإنسان وظاهره وعلاقاته بالأفراد والجماعات والحكام فضلاً عن علاقته بربه، وأبرزت المهالك التي يجب تجنبها لمن أراد حياة فاضلة، وجاءت بألفاظ لها دلالات مادية وصرفتها إلى المعاني الأخلاقية والنفسية، كلفظة الغنيمة التي وجهها إلى التقوى، والزهادة والفقر التي عني بها الشره في كل شيء مما جعل صاحب هذه الإجابات فوق ذرا العلماء الأخلاقيين والحكماء الذوقيين.

(د) إنه بتتبعنا للأقوال الواردة على لسان التابعين وتابعيهم ممن سلكوا سبيل الزهد نجد أنهم تعلموا من الصحابة طريق المجاهدة النفسية والمكابدة، وطريقة النظر والتطلع إلى التحقيق بالفضائل، والبعد عن الرذائل على ما ظهر من أقوال محمد بن المنكدر الذي صرح بأنه كابد نفسه أربعين سنة حتى استقامت.

وعامر بن عبد اللـــه بن الزبير الذي اشترى نفسه من اللـــه بسبع ديات، ومحمد بن كعب القرظي الذي اهتم بالفقه في الدين والزهد في الدنيا والبصر بالعيوب.

بينما اهتم أبو حازم سلمة بن دينار، وزيد بن أسلم بمراقبة هوى النفس وميلها، أما مجاهد بن جبير فإنه قال: من أعز نفسه أذل دينه[1].

---

(١) نفس المرجع السابق.

وإن كنا نلحظ يقينًا أن هؤلاء الزهاد من الطبقة الثانية والثالثة انصرفوا إلى تحصيل العلم، ومجاهدة النفس دون الخوض في تشقيق المسائل النفسية على نحو ما فعل الصحابة.

ومرجع ذلك إلى أن السابقين إلى الإسلام ممن التفوا حول رسول الله استوعبوا المسائل الدينية مسألة مسألة، ثم انصرفوا في أخريات حياتهم إلى النفس وتحليلها.

ومن هنا تفوق الصحابة على من دونهم في المجال العلمي والنفسي، وكانت مدرستهم هي صاحبة الفضل على غيرها في الميدانين، وسنزيد الأمر تفصيلاً عند حديثنا عن النفس في بحثها المستقل.

(هـ) كما كان الخوف والرجاء، وكما كان الشكر والتواضع محل حديث الزهاد فإن الحب كذلك قد ذاقه مصعب وسالم مولى أبي حذيفة وعمير بن سعد، وابن عمر، وبالتالي: فلم تكن رياح الخوف والرهبة من الحساب والعقاب هي التي تلفح عواطف الزهاد وحدها وإنما رقرقت نسائم الحب والشوق قلوب كثير من الصحابة والتابعين وسندخر الحديث عن نزعة الحب إلى مكانها.

ثالثا: الخصائص الاصطلاحية والذوقية

بان لنا أن القواعد الأساسية للحركة الروحية قد تمهدت في تلك المدرسة سواء من الناحية العلمية أم ناحية الزهد وخصائصه في العبادة والنفس، ومما يزيد هذا الأمر تأكيدًا ويفصح عن أن الزهد لم يكن عمليًّا فقط؛ هو وجود بذور قوية للمصطلحات، والرمزية نطق بها أبوبكر في قوله الوحا الوحا.

وحث عبد الله بن مسعود على العمل الصالح فاستخدم له لفظ الكنز

المصون، وعبر عتبة بن غزوان عن تولي الدنيا وانقضائها بالصبابة وهي البقية الباقية من المطر، وشبه سلمان الفارسي طرفة الإيمان بسرعة الدابة، ونبه أبو ذر الغفاري على التزود بما يصلحنا في السفر إلى يوم القيامة مصرحًا بلفظة السفر.

وكان لأبي بكر ورد، ولعمر ورد، ولكل صاحبي ورد، مما يدل دلالة بينة على أن اللغة الصوفية وإشاراته بذرت على أرض مدرسة الحجاز منذ الصدر الأول للإسلام، كما أن الأصول المنهجية الذوقية ألمح إليها عمر حين صرح بحقائق الإيمان، واهتم علي بن أبي طالب بالبصيرة والمعاينة والحكمة، وكانت الحكمة أيضا أقرب إلى فم أبي حازم، كما أخبر عبد الرحمن بن زيد[1].

وكذلك صلحت عبارة أبي بكر حين مرض وأشير عليه بالذهاب إلى الطبيب فاستسلم لله قائلا: فعال لما يريد أن تكون منبعًا لفكرة الفناء، يضاف إلى ذلك أقوال ابن المسيب، وعروة بن الزبير، وعامر بن عبد الله بن الزبير، في الاستغناء بالله وحده، وكلها تمهد بحق للفناء الإرادي، ولولا خوف التكرار لانفراد هذه المسائل بفصول مستقلة لذكرنا أقوالهم في هذه الأذواق بتفصيلها، ولكننا اقتصرنا على مجرد التلميح الذي يخدم فكرتنا الرئيسية هنا وهي أن حركة الزهد عامة، ومدرسة الحجاز بصفة خاصة هي الأساس الذي بذرت في ساحاته كل الأصول والأذواق التي توسع فيها الصوفية مؤخرًا[2]، وسنتحقق من صدق هذه النتيجة كلما أمعنا في دراستنا لمدارس الزهد.

---

(١) حلية الأولياء ج١: ٣٤: ٣٦: ٥١: ٧٦: ٧٨: ٨٠: ١٣٥: ١٥٧: ١٦٥: ١٧١: ١٨١: ٣٠٣: ٣٠٦ ج٢: ١٧٣: ١٧٨ : ١٦٦ : ٢٣٢.

(٢) نفسه.